الفصل الحادي عشر
غزوة الأحزاب ٥ هـ

المبحث الأول
تاريخ الغزوة، وأسبابها، وأحداثها

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

١ ـ تاريخ الغزوة:

ذهب جمهور أهل السير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة [١]، وقال الواقدي [٢]: إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد [٣]: إن الله استجاب لدعاء الرسول فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجره ﷺ.

ونقل عن الزهري، ومالك بن أنس، وموسى بن عقبة أنها وقعت سنة أربع هجرية [٤].

ويرى العلماء أن القائلين بأنها وقعت سنة أربع كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة، ويُلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة [٥]، وجزم ابن حزم [٦]، أنها وقعت سنة أربع لقول ابن عمر أن الرسول ﷺ ردّه يوم أحد ـ وهي في السنة الثالثة باتفاق ـ وهو ابن أربع عشرة سنة [٧]، ولكن البيهقي [٨]، وابن حجر [٩] وغيرهما فسروا ذلك بأن ابن عمر كان يوم أحد في بداية

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٣).
(٢) انظر: المغازي (٢/ ٤٤٠) بدون إسناد.
(٣) الطبقات (٢/ ٦٥، ٧٣) بإسناد متصل.
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٥).
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٣).
(٦) انظر: جوامع السيرة (ص ١٨٥).
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٤).
(٨) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٩٦).
(٩) انظر: الفتح (٣/ ٣٩٦).

obeikandl.com

الرابعة عشرة ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور [١].

وإلى ما ذهب إليه الجمهور وهو الراجح لديَّ، مال ابن القيم حيث قال: وكانت سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أحداً كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل وهو سنة أربع، ثم أخلفوه من أجل جدب تلك السنة، فرجعوا فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه [٢].

٢ ـ أسبابها:

إن يهود بني النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين وكوّنوا لهذا الغرض الخبيث وفداً يتكون من سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبي عمار [٣].

وقد نجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمته، حيث وافقت قريش التي شعرت بمرارة الحصار الاقتصادي المضروب عليها من قبل المسلمين، ووافقت غطفان طمعاً في خيرات المدينة وفي السلب والنهب وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكة أن دينكم خير من دين محمد وأنتم أولى بالحق منه [٤]، وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النِّساء: ٥١ ـ ٥٢].

وحول هذه المقالة أشار الأستاذ ولفنسون إلى الخطأ الكبير الذي وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضيلهم دين قريش الوثني على دين الإسلام، الذي يدعو إلى عبادة الإله الواحد، فقال: (والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين حيث فضّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية) [٥] ولا ريب فإن قريشاً قد سُرَّت بما سمعت من مدح لدينها، فازدادت حماساً، وأصبحت أكثر تصميماً على حرب المسلمين، ثم أعلنت

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٤).
(٢) انظر: زاد المعاد (٢/ ٢٨٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٧).
(٤) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، (ص ٣١٠).
(٥) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون، (ص ١٤٢).

موافقتها على هذه الدعوة والاشتراك في الحملة التي ستهاجم المدينة، وضربت لها موعداً [١].

وقد أبرم الوفد اليهودي مع زعماء أعراب غطفان اتفاقية الاتحاد العربي الوثني اليهودي العسكري ضد المسلمين، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

أ ـ أن تكون قوة غطفان في جيش الاتحاد هذا ستة آلاف مقاتل.

ب ـ أن يدفع اليهود لقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل تمر خيبر سنة واحدة [٢].

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعه عشرة آلاف مقاتل، أربعة آلاف من قريش وأحلافها، وستة آلاف من غطفان وأحلافها، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة.

ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب:

كان جهاز أمن الدولة الإسلامية على حذر تام من أعدائه، لذا فقد كان يتتبع أخبار الأحزاب ويرصد تحركاتهم، ويتابع حركة الوفد اليهودي منذ خرج من خيبر في اتجاه مكة، وكان على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش أولاً، ثم غطفان ثانياً، وبمجرد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو شرع الرسول ﷺ في اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعي اليهود الخبيثة [٣]، فأدلى سلمان الفارسي رضي الله عنه برأيه الذي يتضمن حفر خندق كبير لصدّ عدوان الأحزاب، فأعجب النبي ﷺ بذلك، قال الواقدي رحمه الله: فقال سلمان: (يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين) [٤].

وعندما استقر الرأي ـ بعد المشاورة ـ على حفر الخندق، ذهب النبي ﷺ هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه واختار للمسلمين مكاناً تتوافر فيه الحماية للجيش، فقد ذكر الواقِدي: أن رسول الله ﷺ ركب فرساً له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعاً ينزله فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعاً خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب [٥] إلى

---

(١) انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون، (ص ١٤٢).
(٢) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص ١٤١).
(٣) المصدر نفسه، (ص ١٤٤، ١٤٥).
(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٤٤٤)، والطبقات الكبرى (٢/ ٦٦).
(٥) ذباب: أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.

راتج [١]، وقد استفاد ﷺ من مناعة جبل سلع [٢] في حماية ظهور الصحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفقاً، لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حر واقم [٣] من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول وبني قريظة عهد ألا يمالئوا عليه أحداً، ولا يناصروا عدواً ضده [٤].

ويستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكان ملائم لنزول الجند أهمية الموقع الذي ينزل فيه الجند، وأنه ينبغي أن يتوافر فيه شرط أساسي وهو الحماية التامة للجند، لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها [٥].

لقد كانت خطة الرسول ﷺ في الخندق متطورة، ومتقدمة حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريباً عنهم، وبهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم.

ثالثاً: اهتمام النبي ﷺ بالجبهة الداخلية:

١ ـ لما علم النبي ﷺ بقدوم جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم، في حصن بني حارثة، حتى يكونوا في مأمن من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك ﷺ لأن حماية الذراري والنساء والصبيان لها أثر فعّال على معنويات المقاتلين، لأن الجندي إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادىء الأعصاب، فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة، يسخّر كل إمكاناته وقدراته العقلية والجسدية للإبداع في القتال، أما إذا كان الأمر بعكس ذلك فإن أمر الجندي يضطرب ومعنوياته تضعف ويستولي عليه القلق، مما

(١) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود.
(٢) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة. انظر: معجم البلدان (٣/ ٢٣٦).
(٣) هي حرة المدينة الشرقية. انظر: معجم رجال الحجاز (٢/ ٢٨٣، ٢٨٥).
(٤) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، (ص ٤٤٢).
(٥) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٢٦).

يكون له أثره في تراجعه عن القتال بذلك تنزل الكارثة بالجميع [١].

٢ ـ ومن الأمور التي ساهمت في تقوية وتماسك الجبهة الداخلية مشاركة النبي ﷺ جنده أعباء العمل، فقد شارك الرسول ﷺ الصحابة في العمل المضني، فأخذ يعمل بيده الشريفة، في حفر الخندق، فعن ابن إسحاق: قال: سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغُبارُ جلدة بطنه وكان كثير الشعر [٢].

فعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكلل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

٣ ـ وكان ﷺ يشارك الصحابة ﷺ في آلامهم، وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم، ففي غزوة الأحزاب نجد أنه ﷺ كان يعاني من ألم الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشريف من شدة الجوع [٣]، ثم إنه ﷺ شاركهم في آمالهم، فحين وجد ما يسد رمقه بعد هذا الجوع الذي استمر ثلاثاً، لم يستأثر بذلك دونهم وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله ﷺ.

٤ ـ رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوبات جمة، فقد كان الجو بارداً، والريح شديدة، والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة، ويضاف إلى ذلك العمل المضني حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك في أن هذا الظرف ـ بطبيعة الحال ـ يحتاج إلى قدر كبير من الحزم والجد، ولكن النبي ﷺ لم ينس في هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل، كما أنها بحاجة إلى من يدخل السرور حتى تنسى ذلك الآلام التي تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسي، ولهذا نجد أن النبي ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بَغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا
ثم يمد صوته بآخرها [٤].

(١) انظر: غزوة الأحزاب، د. محمد عبد القادر أبو فارس، (ص ٩٨).
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، رقم (٤١٠٦).
(٣) غزوة الأحزاب، د. محمد أبو فارس، (ص ١١٦، ١١٧).
(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق» رقم (٤١٠٦).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون يوم الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الفداء ما بقينا أبدا

أو قال على الجهاد والنبي يقول:

اللهم إن الخير خير الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة [(١)]

لقد كان لهذا التبسط والمرح في ذلك الوقت أثره في التخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجة للظروف الصعبة التي يعيشونها، كما كان له أثره في بعث الهمة والنشاط، بإنجاز العمل الذي كُلِّفوا بإتمامه، قبل وصول عدوهم [(٢)].

٥ ـ تقدير ظروف الجند والإذن بالانصراف عند الحاجة:

كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على قدر كبير من الأدب مع النبي ﷺ، فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورة، فيذهبون لقضاء حوائجهم، ثم يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبة في الخير واحتساباً له فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٢].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن، لقضاء بعض حاجاتهم التي تعرض لهم، فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها، واستغفر لهم [(٣)]، فكان النبي ﷺ بالخيار، وإن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن ولم ير فيه مضرة على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ويقتضيه مقام الحال [(٤)].

٦ ـ تقسيم الصحابة إلى دوريات للحراسة:

قسم النبي ﷺ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة نبيهم ﷺ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنوداً وقيادة، حتى إنهم استمروا ذات يوم من السحر إلى جوف من الليل في اليوم الثاني، ويفوت المسلمين الصلوات الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع علي بن أبي طالب مع مجموعة من الصحابة

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «غزوة الأحزاب» (٣/ ١٤٣٢)، رقم (١٢٩).
(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٨٢).
(٣) انظر: صفوة التفاسير للصابوني (٢/ ٣٥١).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤١٠).

أن يصدوا محاولة عكرمة بن أبي جهل، بل تصدى علي لبطل قريش عمرو بن عبد ود وقتله [١]، وكانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النبي ﷺ في كل ليلة على رأسهم عباد بن بشر - رضي الله عنه - فالنبي ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة فهو الذي يرسم الخطط ويراقب تنفيذها فهو الذي:

أ - أمر بحفر الخندق وبعد أن تمت المشاورة في ذلك، فاختار مكاناً مناسباً لذلك، وهو السهول الواسعة شمال المدينة، إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب - قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعاً لعشرة من الصحابة ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

جـ - سيطر ﷺ على العمل، فلا يستطيع أحد ترك عمله إلا بإذن منه ﷺ.

د - قسَّم ﷺ واجبات احتلال الموضع بنفسه بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلاً ونهاراً، ثم إنه ﷺ كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجند بتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

هـ - استطاع ﷺ لما يتمتع به من حنكة وبراعة سياسية مستمدة من شخصيته النبوية أن يمسك بزمام الأمور وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج، الذي حدث لهم، عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة، وأصبح الخطر يهدد المدينة وما حولها [٢]، فقد توحّدت قيادة المسلمين تحت زعامته ﷺ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة والفوز بها.

المبحث الثاني

اشتداد المحنة بالمسلمين

مع أن المسلمين أخذوا بجميع الاحتياطات في تأمين جبهتهم الداخلية، ومحاولة الدفاع عن الإسلام والمدينة من جيش الأحزاب الزاحفة، إلا أن سنّة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدة، ولا منحة إلا بعد محنة، وكلما اقترب النصر زاد البلاء، والامتحان، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق عندما:

أولاً: نقض اليهود من بني قريظة العهد ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة، فيقع المسلمون حينئذٍ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم،

(١) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان، (ص ٥٠٤).

(٢) انظر: القيادة العسكرية في عصر الرسول، (ص ١١).

ونجح اليهودي زعيم بني النضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشائعات بين المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم، وكان الرسول ﷺ يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه، لأن اليهود قوم لا عهد لهم ولا ذمة، ولذلك انتدب النبي ﷺ الزبير بن العوام (رجل المهمات الصعبة) ليأتيه من أخبارهم، فذهب الزبير، فنظر ثم رجع فقال: يا رسول الله رأيتهم يصلحون حصونهم ويُدربون [١] طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم [٢].

وبعد أن كثرت القرائن الدالة على نقض بني قريظة للعهد، أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير - رضي الله عنهم - وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً [٣] أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس [٤].

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد فرجعوا فسلَّموا على النبي ﷺ وقالوا: عضل والقارة [٥]، فعرف النبي ﷺ مرادهم [٦].

واستقبل النبي ﷺ غدر بني قريظة بالثبات والحزم، واستخدم كل الوسائل التي من شأنها أن تقوي روح المؤمنين، وتصدع جبهات المعتدين، فأرسل النبي ﷺ في الوقت نفسه (سلمة بن أسلم) في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة، وفي هذه الأثناء استعدت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيراً كانت محملة تمراً وشعيراً وتيناً لتمدهم بها وتقويهم على البقاء إلا أنها أصبحت غنيمة للمسلمين الذين استطاعوا مصادرتها وأتوا بها إلى النبي ﷺ [٧].

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها، واشتد الكرب على المسلمين وتأزم الموقف، وقد تحدّث القرآن الكريم عن حالة الحرج

---

(١) يُدربون طرقهم: يسهلون طرقهم من أجل السير إلى المسلمين.
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٤٥٧).
(٣) لحناً: أي كلام لا يفهمه أحد سواي.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٩٩).
(٥) قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النبي في ذات الرجيع.
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٩٥).
(٧) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٣٢٣).

والتدهور التي أصابت المسلمين ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف، وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف حيث قال تعالى:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وكان ظن المسلمين بالله قوياً، وقد سجّله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش وزاد خوفهم حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة، فقد كان موقفهم يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإرجاف والتخذيل [(١)]، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير [(٢)] والآيات هي:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٣ ـ ٢٠].

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب، والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية، زاعمين أن بيوتهم مكشوفة

(١) انظر: المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٧٦)، مجمع الزوائد (٦/ ١٣١).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٤).

للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك مواقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام [١].

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق في المسلمين في ناحية ضيقة منه، ويأخذهم على حين غرة، لكن أسيد بن حضير في مائتين من الصحابة يرقبون تحركاتهم، وقد حصلت مناوشات استشهد فيها الطفيل بن النعمان والذي قتله وحشي ـ قاتل حمزة يوم أُحد ـ رماه بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلاً [٢]، واستطاع حبان بن العرقة من المشركين أن يرمي سهماً أصاب سعد بن معاذ ـ ﷺ ـ في أكحله [٣] وقال: خذها وأنا ابن العرقة، وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللهم إن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني أجاهدهم فيك، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهد من قوم كذبوا رسولك، وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها [٤].

وقد استجاب الله دعوة هذا العبد الصالح وهو الذي سيحكم فيهم، ثم وجه المشركون كتيبة غليظة نحو مقر رسول الله ﷺ، فقاتلهم المسلمون يوماً إلى الليل، فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة، فلم يقدر النبي ﷺ، ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا، وشغل بهم النبي ﷺ فلم يصل العصر، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع الليل، فقال رسول الله ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس» [٥].

ثالثاً: محاولة النبي ﷺ تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان، وبث الإشاعات في صفوف الأعداء:

١ ـ سياسة النبي ﷺ في المفاوضات مع غطفان:

ظهرت حنكته ﷺ وحسن سياسته، حين اختار قبيلة غطفان بالذات لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم ﷺ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٢٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٢٤).
(٣) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة إذا قطع لم يرقأ الدم.
(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (٣/ ١٣٨٩)، رقم (١٧٦٩).
(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق رقم (٤١١١).

على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها، ولهذا لم يحاول الرسول ﷺ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال وإنما كان هدفهم هدفاً سياسياً وعقائدياً يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس، لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين لم يترددوا (فعلاً) في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي ﷺ [(١)]، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبي ﷺ وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي ﷺ واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله ﷺ في مفاوضتهم وكانت تدور حول عرض تقدم به رسول الله ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

أ ـ عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودة ضمن جيوش الأحزاب.

ب ـ توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

جـ ـ تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

د ـ دفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة [(٢)]، فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله ﷺ قال لقائدي غطفان: أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟ قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر [(٣)].

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله ﷺ من الوجهة العسكرية، وضوح الهدف الذي خرجت غطفان من أجله، وهو الوقود الذي يشغل نفوس هؤلاء ويحركها في جبهة القتال، ولا شك في أن اختفاء هذا الدافع يعني أن المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال، وبذلك تضعف عنده الروح المعنوية التي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه، وبذلك استطاع ﷺ أن يفتت ويضعف من قوة جبهة الأحزاب [(٤)].

فقد أبرز ﷺ في هذه المفاوضات جانباً من جوانب منهج النبوة في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزمها، لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربوياً من دروس التربية المنهجية

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب، محمد باشميل، (ص ٢٠١).

(٢) المصدر نفسه، (ص ٢٠١، ٢٠٢).

(٣) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٤٧٧).

(٤) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤١٣).

عند اشتداد البلاء [١]، وقبل عقد الصلح مع غطفان شاور رسول الله ﷺ الصحابة في هذا الأمر، فكان رأيهم في عدم إعطاء غطفان شيئاً من ثمار المدينة. وقال السعدان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة: يا رسول الله أمراً تحبه، فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النبي ﷺ: «أنت وذاك».

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا [٢].

كان رد زعيمي الأنصار سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة في غاية الاستسلام للّه تعالى والأدب مع النبي ﷺ وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام: الأول أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى فلا مجال لإبداء الرأي بل لا بدّ من التسليم والرضا، والثاني: أن يكون شيئاً يحبه رسول الله ﷺ، باعتباره رأيه الخاص، فرأيه مقدم وله الطاعة في ذلك، الثالث: أن يكون شيئاً عمله الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالاً للرأي.

ولما تبيّن للسعدين من جواب الرسول ﷺ أنه أراد القسم الثالث، أجاب سعد بن معاذ بجواب قوي كبت به زعيمي غطفان حيث بيّن أن الأنصار لم يذلوا لأولئك المعتدين في الجاهلية، فكيف وقد أعزهم الله تعالى بالإسلام، وقد أُعجب النبي ﷺ بجواب سعد وتبيّن له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح المعنوية العالية، فألغى بذلك ما بدا به من الصلح مع غطفان [٣].

وفي قوله ﷺ: «إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة» [٤] دليل على أن رسول الله ﷺ كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفاً واحداً، وهذا يرشد المسلمين إلى عدة أمور منها:

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

---

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (ص ٤/ ١٧٦).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٢٥).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).

* أن يكون الهدف الاستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام [١].

وفي استشارة رسول الله ﷺ للصحابة يبيّن لنا أسلوبه في القيادة وحرصه على فرض الشورى في كل أمر عسكري يتصل بالجماعة، فالأمر شورى ولا ينفرد به فرد حتى ولو كان هذا الفرد رسول الله ﷺ، ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد ولم ينزل به وحي [٢].

إن قبول الرسول ﷺ رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة [٣].

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معان:

أ ـ أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي والمشورة في أي أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب ـ أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله وبالإسلام.

جـ ـ أنه يبيّن ما تمتلىء به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة؛ بالصبر والرغبة القوية في قهر العدو مهما كثر عدده وعتاده، أو تعدد حلفاؤه [٤].

٢ ـ اهتمام الرسول ﷺ ببث الخذلان في صفوف الأعداء:

استخدم النبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم ﷺ أن هناك تصدعاً خفيفاً بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها، والآن ساق المولى ﷻ نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه وقال له: يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة» [٥].

فقام نعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة من رسول الله ﷺ، فأغرى اليهود بطلب

---

(١) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٦٨٧).
(٢) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، (ص ٤١٤).
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤١٤).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٤١٥، ٤١٦).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١١٣).

رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية، فالحرب خدعة [١].

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، ما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم، وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ - أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

ب - أنه ذكر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حربهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

جـ - أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب [٢].

المبحث الثالث

مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدة تضرع الرسول ﷺ ونزول النصر:

كان رسول الله ﷺ كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله، وخصوصاً في مغازيه، وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً، فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم... اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا [٣]. وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم [٤]»، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ﷺ فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٣٠).
(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٧٧).
(٣) مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (٣/ ٢).
(٤) البخاري: كتاب المغازي: «باب غزوة الأحزاب» (٥/ ٥٩)، رقم (٤١١٤).

وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم وأنزل جنوداً من عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ، لأن النبي ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منهم، ولم يكن بينهم إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها، ولا خبر عندهم لها... وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط [(١)]، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضها في بعض، وأرسل عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إليّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الرعب [(٢)].

وحرص الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يؤكد لصحبه، ثم للمسلمين في الأرض، أن هذه الأحزاب التي تجاوزت عشرة آلاف مقاتل لم تُهزم بالقتال من المسلمين ـ رغم تضحياتهم ـ ولم تهزم بعبقرية المواجهة، إنما هزمت بالله وحده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» [(٣)].

ودعاء رسول الله ﷺ ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبداً مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنّة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها [(٤)].

إن رسول الله ﷺ يعلمنا سنّة الأخذ بالأسباب وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له، لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله ﷺ في حياته كلها [(٥)].

ثانياً: تحري انصراف الأحزاب:

كان رسول الله ﷺ يتابع أمر الأحزاب، وأحب أن يتحرى عما حدث عن قرب فقال: «ألا

---

(١) الفساطيط: جمع فسطاط، نوع من الأبنية في السفر وهو دون السرادق.
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٤٤).
(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق» رقم (٤١١٤).
(٤) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ٥٠٣).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي: (ص ٢٢٢).

رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة» [١]، فاستعمل ﷺ أسلوب الترغيب وكرره ثلاث مرات، وعندما لم يُجد هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعيّن واحداً بنفسه فقال: «قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم ولا تَذْعَرْهُم عليّ» [١].

وفي هذا معنى تربوي وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة.

قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: فمضيت كأنما أمشي في حمام، فإذا أبو سفيان يصلّي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد القوس وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تذعرهم عليّ» ولو رميته لأصبته، فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ وأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلّي فيها، فلم أبرح نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان» [٢].

ويؤخذ من قصة حذيفة دروس وعِبَر منها:

١ ـ معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرجال حيث اختار حذيفة ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب، وأن معدن حذيفة معدن ثمين فهو شجاع، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، وهو بالإضافة إلى ذلك لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة.

٢ ـ الانضباط العسكري الذي كان يتحلى به حذيفة: لقد مرت فُرصة سانحة يقتل فيها قائد الأحزاب وهمّ بذلك، ولكنه ذكر أمر الرسول ﷺ ألا يذعرهم وأن مهمته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه [٣].

٣ ـ كرامات الأولياء: إن ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح، وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مُدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى معسكر المسلمين، لا شك هذه كرامة يمن الله بها على عباده المؤمنين [٤].

٤ ـ لطف النبي ﷺ مع حذيفة عند رجوعه، فقد كان ﷺ يترفق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة الليل وحلاوة المناجاة من التلطف بحذيفة، الذي جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه، ليدفئه، وتركه ملفوفاً به حتى أتم صلاته، بل

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «غزوة الأحزاب» رقم (١٧٨٨).
(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «غزوة الأحزاب» رقم (١٧٨٨).
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ٥٠٥)، السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣٦٧).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣٦٧).

حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعابة، قائلاً: «قم يا نومان»، دعابة تقطر حلاوة وتفيض بالحنان، وتسيل رقة، إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول ﷺ، وتطبيق فريد رفيع لهما في أصحابه الكرام [١]، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٥ ـ وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكريم، وقد دخل في القوم كما في رواية الزرقاني، وقال أبو سفيان: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص [٢].

وهكذا بدرهم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج الذي ربما كان أودى بحياته [٣].

ثالثاً: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب ونتائجها:

تحدث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب، ورد الأمر كله للّه سبحانه، وقد سجّل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب وقريظة، والقرآن كعهدنا به يسجل الخالدات التي تسع الزمان والمكان، فالمسلمون معرضون دائماً لأن يُغزوا في عقر دارهم وفي عواصم بلدانهم، ومعرضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعاً، فإن يسجل القرآن حادثتي الأحزاب وقريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور [٤] لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعِبَر من الحوادث السابقة التي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص، والذي يتدبر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمور من أهمها ما يلي:

١ ـ تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

٢ ـ التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢٤٦).
(٢) انظر: شرح الزرقاني (٢/ ١٢٠).
(٣) انظر: من معين السيرة، (ص ٢٩٣).
(٤) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٦٦٢).

٣ ـ الكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع، ومعاذيرهم الباطلة ونقضهم للعهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] .

٤ ـ حض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وجهاده، وكل أحواله استجابة لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] .

٥ ـ مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق، ووفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

٦ ـ بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

٧ ـ امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر، حيث ألقى سبحانه الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله [(١)]، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧] .

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمة منها:

* انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم وتفرقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم، قد خابت أمانيهم وآمالهم.

* تغيّر الموقف لصالح المسلمين، فانقلبوا من موقف الدفاع إلى الهجوم، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال: «الآن تغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم» [(٢)].

* كشفت هذه الغزوة حقد يهود بني قريظة على المسلمين وتربص الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها.

* كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٩٠، ٤٩١).

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق»، رقم (٤١١٠).

بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين واليهود.

* كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب، حيث تم فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأقساها [١].

رابعاً: التخلص من بني قريظة:

بعد عودة النبي ﷺ من الخندق ووضعه السلاح، أمر الله تعالى نبيه بقتال بني قريظة، فأمر الحبيب ﷺ أصحابه بالتوجه إليهم، وقد أعلمهم بأن الله تعالى قد أرسل جبريل ليزلزل حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب وأوصاهم بأن «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» [٢].

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلة [٣]، ولما اشتد الحصار وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكِّم الرسول ﷺ فيهم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ ونزلوا على حكمه ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس، فجيء بسعد محمولاً لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق، فقضى أن تُقتل المقاتلة وأن تُسبى النساء والذرية، وأن تُقسم أموالهم، فأقره رسول الله ﷺ وقال: قضيت بحكم الله [٤]، ونفذ حكم الإعدام في أربعمائة في سوق المدينة حيث حفرت أخاديد وقتلوا بشكل مجموعات، وقد نجا مجموعة قليلة جداً بسبب وفائها للعهد ودخولها في الإسلام، وقسمت أموالهم وذراريهم على المسلمين.

وهذا جزاء عادل نزل بمن أراد الغدر وتبرأ من حلفه للمسلمين، وكان جزاؤهم من جنس عملهم، حين عرضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتال وأموالهم للنهب، ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً [٥].

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدة، ونترك السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ تحدثنا عنها قالت السيدة عائشة: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قالت: والله إنها لعندي تتحدث معي تضحك ظهراً وبطناً [٦] ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك ومالك؟ قالت: أقتل، قلت: ولم؟ قالت: حدثاً

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٢/ ٤٤٢).
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب «مرجع باب النبي ﷺ من الأحزاب» رقم (٤١١٩).
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٣٧٣).
(٤) البخاري: كتاب المغازي، «مرجع رسول الله من الأحزاب»، رقم (٤١٢١).
(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٥ ـ ٣١٧).
(٦) ظهراً وبطناً: لا يبدو على ملامحها أثر الحزن.

أحدثته [١] قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها، وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: والله ما أنسى عجبي من طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل [٢].

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تماماً من الوجود اليهودي، وصارت خالصة للمسلمين، وخلت الجبهة الداخلية من عنصر خطر، لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر، واضمحل حلم قريش لأنها كانت تعوِّل وتؤمل في يهود بأن يكون لهم موقف ضد المسلمين، وابتعد خطر اليهود الذي كان يمد المنافقين بأسباب التحريض والقوة [٣].

إن حماية الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية من العابثين منهج نبوي كريم رسمه الحبيب المصطفى للأمة المسلمة.

المبحث الرابع

فوائد ودروس وعِبَر

أولاً: المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ:

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزات حسية للنبي ﷺ، منها تكثير الطعام الذي أعدّه جابر بن عبد الله، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: إنا يوم الخندق مُحفر [٤] فعرضت كُدْيَة شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كُدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية فعاد كثيباً أهيل [٥] أو أهيم [٦].

قال جابر: فقلت يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعَناق [٧]، فذبحت العَناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البرمة [٨]، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي [٩]، وقد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان،

---

(١) طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلها رسول الله به.
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٣٧٧).
(٣) انظر: سيرة الرسول، دروزة (٢/ ٧٦) نقلاً عن دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ١٥٣).
(٤) محفر: اسم فاعل من حفّر.
(٥) أهيل: رملاً سائلاً. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٨٩).
(٦) أهيم: الرمل الذي لا يتمالك. انظر لسان العرب (٣/ ٨٥٨).
(٧) العناق: الأنثى من أولاد المعز. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣١٠).
(٨) البرمة: هي القدر مطلقاً. انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ١٢١).
(٩) الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها. انظر: القاموس المحيط (٣/ ١٢٠).

قال «كم هو؟»فذكرت له، فقال «كثير طيب»، قال: «قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنُّور حتى آتي» فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «ادخلوا ولا تضاغطوا» (١)، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسّر الخبز، ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة» (٢).

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بُنيَّة، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: «تعالي يا بنية ما هذا معك؟» فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه، قال: «هاتيه»، قالت: فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دعا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق أن هلمَّ إلى الغداء»، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب (٣).

ففي هذين الخبرين معجزات حسية ظاهرة للرسول ﷺ، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم، وبعدت عنهم أرزاقهم، وقلّ عنهم القوت، وأصاب الناس جوع وحرمان، حتى كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يشدون على بطونهم الحجارة من شدة الجوع، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطعام (٤).

ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق: إخباره ﷺ عمار بن ياسر، وهو يحفر معهم الخندق، بأنه ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين وكان في جيش علي (٥)، وعندما اعترضت صخرة الصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتتت، قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة»، ثم ضربها الثانية، فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض»، ثم ضرب الثالثة، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من

(١) ولا تضاغطوا: أي لا تزاحموا، انظر: لسان العرب (٢/ ٥٣٧).
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق» رقم (٤١٠١).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤١).
(٤) انظر: المرأة في العهد النبوي، (ص ١٧٥).
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٨).

مكاني هذه الساعة» [١].

وقد تحققت هذه البشارة التي أخبرت عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها، في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة، يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارس [٢].

ثانياً: بين التصور والواقع:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق [٣]... ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة، ويتخيل أنه لو وجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام، والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة ﷺ بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل ما يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس فضلاً عن المال والجهد، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله: «خير القرون قرني» فبيّن أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاءوا من بعد، فوجدوا سلطان الإسلام ممتداً، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة يستشعرون من خلالها أجواء الماضي، بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر... وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة حتى قام الإسلام في الأرض [٤].

ثالثاً: سلمان منا أهل البيت [٥]:

قال المهاجرون يوم الخندق: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت» [٦]. وهذا الوسام النبوي الخالد لسلمان يشعر بأن سلمان من المهاجرين لأن أهل البيت من المهاجرين [٧].

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٤٨).
(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٢٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٥٥).
(٤) انظر: من معين السيرة للشامي، (ص ٢٩١).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤٧).
(٦) المصدر نفسه، (٣/ ٢٤٧) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير.
(٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٠٨).

رابعاً: الصلاة الوسطى:

قال ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس» (١).

وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الحديث على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوص عليه، وألزم القاضي الماوردي مذهب الشافعي بهذا لصحة الحديث، وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال كما هو مذهب مكحول والأوزاعي (٢).

قال الدكتور البوطي: لقد فاتت النبي ﷺ صلاة العصر كما رأيت في هذه الموقعة، لشدة انشغاله، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس، وفي روايات أخرى غير الصحيحين أن الذي فاته أكثر من صلاة واحدة، صلاها تباعاً بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزاً إذ ذاك، ثم نسخ حينما شرعت صلاة الخوف للمسلمين؛ رجالاً وركباناً عند التحام القتال بينهم وبين المشركين، إذ النسخ على فرض صحته ليس وارداً على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال، أي أن نسخ صحة التأخير ليس نسخاً لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضاً، بل هي مسكوت عنها، فتبقى على مشروعيتها السابقة (٣).

خامساً: الحلال والحرام:

عرضت قريش فداءً مقابل جثة عمرو بن ود، فقال ﷺ: «ادفعوا إليهم جيفته فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدية فلم يقبل منهم شيئاً».

حدث هذا والمسلمون في ضنك من العيش، ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من بعض المسلمين، الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه (٤).

سادساً: شجاعة صفية عمة الرسول ﷺ:

كان ﷺ قد وضع النساء والأطفال في حصن فارع وهو حصن قوي، حماية لهم، لأن المسلمين في شغل عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب، فعندما نقض يهود بني قريظة

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق» رقم (٤١١١).
(٢) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٦٨٢).
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية، (ص ٢٢٣).
(٤) انظر: معين السيرة، (ص ٢٩٤).

عهدهم مع رسول الله ﷺ أرسلت يهودياً ليستطلع وضع الحصن الذي فيه نساء المسلمين وأطفالهم، فأبصرته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، فأخذت عموداً ونزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته، فكان هذا الفعل من صفية رادعاً لليهود من التحرش بهذا الحصن الذي ليس فيه إلا النساء والأطفال، حيث ظنت يهود بني قريظة أنه محمي من قبل الجيش الإسلامي، أو أن فيه على الأقل من يدافع عنه من الرجال [١]، ففي هذا الخبر دليل للمرأة في الدفاع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها [٢].

سابعاً: عدم صحة ما يروى عن جبن حسان ـ رضي الله عنه ـ:

ففي قصة صفية عمة رسول الله ﷺ وقتلها لليهودي جاء في رواية سندها ضعيف [٣] أن صفية ـ رضي الله عنها ـ قالت لحسان بن ثابت: إن هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت صفية: فلما قال ذلك، احتجزت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت الحصن، فقلت: يا حسان انزل فاستلبه، فإنه لم يمنعني أن أستلبه إلا أنه رجل، فقال: مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب [٤].

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

١ ـ من حيث الإسناد فالخبر ليس مسنداً وهو ساقط لا يصح، ولا يجوز أن يروى فيساء إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ كان ينافح عن الدعوة وعن رسول الله ﷺ عمره كله.

٢ ـ لو كان حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ معروفاً بالجبن الذي ذكر عنه لهجاه أعداؤه ومبغضوه بهذه الخصلة الذميمة، لا سيما الذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجاته أحد من زعماء الجاهلية، والرسول ﷺ كان يؤيده ويدعو له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين [٥].

ثامناً: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، (ص ٢٨٣، ٢٨٤).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة الدعاة (٢/ ٢٤٦).
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٣٦٥).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٣٦٥).
(٥) انظر: غزوة الأحزاب، الدكتور أبو فارس.

الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية في الإسلام [١]، وجاء في السيرة النبوية لابن هشام... وكان ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب...» [٢].

ويفهم من النص السابق أن من أصيب من المسلمين، إن كان له أهل، اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضُربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين، وسعد بن معاذ الأوسي ليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أعدت لمن به ضيعة وليس له أهل، ذلك أن هؤلاء في رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلِمَ ضُرِبت الخيمة في المسجد، وكان الإمكان ضربها في مكان آخر؟

إن سعد بن معاذ يكرم لمآثره وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم للّه تعالى، فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ [٣]، وهذا منهج نبوي كريم أصبح دستوراً للمسلمين على مدى الزمن.

تاسعاً: المسلم يقع في الإثم ولكنه يسارع في التوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر ـ وكانوا حلفاؤه ـ فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله ﷺ، فأشار إلى حلقه ـ يعني الذبح ـ ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي ﷺ فارتبط به حتى تاب الله عليه، وقد ظل مرتبطاً بالجذع في المسجد ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط في الجذع [٤]، وقد قال أبو لبابة: لاأبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك فقلت: مما تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك. قال: «تيب على أبي لبابة»، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده. فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه [٥] عنه، وذلك في

(١) انظر: المستشفيات الإسلامية، الدكتور عبد الله السعيد، (ص ٤٣).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).
(٣) انظر: من معين السيرة، (ص ٢٩٤).
(٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٢).

الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزلة التي أفشى بها سراً حربيًّا خطيراً، فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح، وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم يطَّلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، ولكنه تذكّر رقابة الله عليه وعلمه بما يُسر ويعلن، وتذكّر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الزلة فزعاً عظيماً [١]، وأقرّ بذنبه واعترف به وبادر إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة، إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: ١٧].

إنها صورة فريدة لتوقيع التوبة من الإنسان نفسه على نفسه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسوق.

وقد فرح الصحابة وفرح النبي ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبي لبابة، وتسابقوا إلى تهنئته، حتى كانت أم سلمة زوجة النبي ﷺ هي التي بادرت بالتهنئة بعد الإذن فبشّرته بقبول الله توبته [٢].

وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ونزل في توبته قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] [٣].

عاشراً: من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ في هذه الغزوة فضائل كثيرة تدل على فضله ومنزلته عند الله ورسوله ﷺ منها:

استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ، وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء، فأبقني له حتى أجاهدهم فيك)، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه وتماثل للشفاء [٤] حتى كانت غزوة

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٦٥).
(٢) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٢٦١).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٢).
(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٢٨).

بني قريظة، وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم وهذا دليل على تجرد قلبه للّه تعالى [١].

ومن إكرام رسول الله ﷺ قوله للأنصار عندما جاء سعد للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم» [٢].

وهذا تكريم لسعد، وتقرير لشجاعته، حيث سماه سيداً، وأمر بالقيام له [٣].

وعندما نفذ حكم الله في يهود بني قريظة رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشاً والمشركين) فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها [٤]، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رضي الله عنه [٥].

ومن خلال دعائه الأول والثاني: نلحظ هذا الدعاء العجيب، دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه وأمته [٦].

ونرى من سيرته أنه لو أقسم على الله لأبره، فهو وجيه في السمٰوات والأرض. فقد شاءت إرادة المولى ـ تعالى ـ أن يعيد الأمر في بني قريظة كله إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ.

إنه لا يحرص كثيراً على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسؤولية، وتأدية الأمانة المنوطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحرب ووضعت بين المسلمين وقريش، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة، وبدأ قطف الثمار للإسلام، فلا ثمرة أشهى عنده من الشهادة (فافجر جرحي واجعل موتي فيه) [٧].

وقد تحققت آماله، فقد أصدر حكمه في بني قريظة وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم، وهاهو جرحه ينفجر [٨].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٧٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٢٦٥).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٧٥).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٢٨).
(٦) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٠).
(٧) المصدر نفسه، (٤/ ٧١).
(٨) المصدر نفسه، (٤/ ٧٤).

وعندما انفجر جرحه نقله قومه فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ﷺ فقيل: انطلقوا فخرج وخرج معه الصحابة، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالهم، وسقطت أرديتهم فشكا ذلك إليه أصحابه، فقال: «إني أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة»، فانتهى إلى البيت وهو يُغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويـــل أم ســـعـــد ســـعـــداً حـــــزامـــــة وجـــــداً

فقال: «كل نائحة تكذب إلا أم سعد»، ثم خرج به، قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتاً أخف علينا منه. قال: «وما يمنعه أن يخف، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم» (١).

وقد جاء في النسائي عن ابن عمر ـ ﷺ ـ عدد الملائكة الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد فقد قال ﷺ: هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمة ثم أفرج عنه (٢) يعني سعداً.

وها هو رسول الله ﷺ يودع سعداً كما روى عبد الله بن شداد: دخل رسول الله ﷺ وهو يكيد نفسه فقال: «جزاك الله خيراً من سيد قوم. فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزك الله ما وعدك» (٣).

لقد أثنى النبي ﷺ على هذا العبد الصالح بعد موته كثيراً أمام الصحابة، ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به (٤)، فقد قال ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» (٥) وفي حديث البراء بن عازب ـ ﷺ ـ قال: أُهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يلمسونها، ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذٍ في الجنة خير منها وألين» (٦).

ومع كل المآثر والمحاسن والأعمال الجليلة التي قدمها لخدمة دين الله، فقد تعرض لضمة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعد ﷺ نزل فيه أربعة: الحارث بن أوس، وأسيد بن الحضير، وأبو نائلة سلكان بن سلامة، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله ﷺ واقف، فلما وضع في قبره، تغيّر وجه رسول الله ﷺ وسبّح ثلاثاً، فسبّح المسلمون حتى ارتج البقيع، ثم كبّر ثلاثاً،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٧) إسناده حسن.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٥) إسناده صحيح، أخرجه النسائي (٤/ ١٠٠) في الجنائز.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٨) رجاله ثقات.
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٧١).
(٥) مسلم، فضائل الصحابة رقم (٢٤٦٦).
(٦) مسلم، فضائل الصحابة، رقم (٢٤٦٨).

وكبّر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر وضم ضمة لو نجا منها أحد لنجا هو، ثم فرّج الله عنه» (١).

إن هذا الصحابي الجليل قد استشهد وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره يوم وافته منيته، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره... فقد كانت هذه السيادة في العشرينات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تتفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين، التي هي غاية الأشد قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السموات بقدومه، واهتز عرش الرحمن فرحاً لوفاته، من دون خلق الله أجمعين (٢)، كان سعد بن معاذ، رجلاً أبيض، طوالاً، جميلاً، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية (٣)، رحمة الله عليه ورضي عنه وأعلى ذكره في المصلحين.

حادي عشر: مقتل حييّ بن أخطب، وكعب بن أسد:

* مقتل حييّ بن أخطب النضري:

روى عبد الرزاق في مصنفه بالسند إلى سعيد بن المسيب... فذكر بعض خبر الأحزاب وقريظة... إلى أن قال: فلما فض الله جموع الأحزاب، انطلق ـ يعني حيي ـ حتى إذا كان بالروحاء ذكر العهد والميثاق الذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلما أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفاً بعد، فقال حيي للنبي: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخْذل الله يُخذل، فأمر به النبي ﷺ فضربت عنقه (٤).

ثم أنه أقبل على الناس قبل تنفيذ حكم الإعدام وقال لهم: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه (٥).

وفي مقتل حييّ بن أخطب دروس وعِبَر منها:

---

(١) انظر: التربية القيادية (٤/ ٧٧)، نقل عن المسند الإمام أحمد (٦/ ١٤١).
(٢) انظر: القيادة الربانية (٤/ ٧٨).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٠).
(٤) انظر: مصنف عبد الرزاق (٥/ ٣٧١)، رقم (٩٧٢٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٥).

أ ـ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

فقد ألّب القبائل العربية واليهودية على محاربة الإسلام ونبيه ﷺ، وأقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد مع الرسول ﷺ وطعنه من الخلف، فجعل الله كيده في نحره وكبته، وفي النهاية قادته محاولاته إلى حتفه.

إن الله لا يهمل الظالمين، ولكن يمهلهم ويستدرجهم حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فكان أخذه أليماً شديداً، قال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته [(١)] ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُود: ١٠٢].

ب ـ التجلد في مواطن الشدة:

لقد تجلّد حييّ وتقدم لتضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير، لأنه يعبد هواه ولم يعبد ربه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجَاثِيَة: ٢٣].

جـ ـ من يَخذُل الله يُخذل:

إن الله تعالى إذا خذل أحداً ليس له نصير يمنعه أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

كما أن عداوة حيي للرسول ﷺ باعثها الحسد والحقد، ولذلك عبّر حيي صراحة أن الله لم يكن معه يوماً من الأيام، بل كان حيي في شق الشيطان عدواً لأولياء الرحمن، يشاقق الله، فالله خاذله ومسلمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، ولا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تنصره وتحول بينه وبين الهزيمة، لأن إرادة الله هي النافذة وقدره هو الكائن، لا راد لقضائه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء [(٢)]. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعَام: ١٧].

*** مقتل كعب بن أسد القرظي:**

وجيء برئيس بني قريظة كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله ﷺ عنقه جرى بينه وبين كعب الحوار التالي:

قال رسول الله: «كعب بن أسد؟».

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (٢/ ١١٢).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ١١٣، ١١٤).

قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم.

قال رسول الله ﷺ: «ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقاً بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟».

قال كعب: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيّرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين يهود.

فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه فضربت [١].

ومما ترويه كتب السيرة النبوية عن يهود بني قريظة، أنهم كانوا يرسلون طائفة تلو طائفة لتضرب أعناقهم وقد سألوا زعيمهم كعب بن أسد فقالوا: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذُهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل [٢].

ونلحظ خبر مقتل كعب بن أسد، أنه كان متعصباً ليهوديته وهو يعلم بطلانها، وأنه على علم بصدق رسالة رسولنا ﷺ، ولكنه لم يؤمن ولم يدخل الإسلام خوفاً من أن تعيّره يهود بأنه جزع من السيف، فعدم إيمانه وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه، وحبه للثناء وخوفه من ذمه وتعييره، وهذا دليل على السفه والحمق وخذلان الله لهذا اليهودي المخادع [٣].

ثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا، وسلمى بنت قيس في رفاعة بن سموأل:

١ ـ شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا:

أقبل ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقال: هب لي الزبير اليهودي أجزه فقد كانت له عندي يد يوم بعاث، فأعطاه إياه، فأقبل ثابت حتى أتاه فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟ فقال: نعم، وهل ينكر الرجل أخاه. قال ثابت: أردت أن أجزيك اليوم بيد لك عندي يوم بعاث، قال: فافعل، فإن الكريم يجزي الكريم، قال: قد فعلت، قد سألت رسول الله ﷺ فوهبك لي، فأطلق عنه إساره، فقال الزبير: ليس لي قائد وقد أخذتم امرأتي وابني، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستوهبه امرأته وبنيه فوهبهم له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: رد إليك رسول الله ﷺ امرأتك وبنيك، فقال الزبير: حائط لي فيه أعذق، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فوهبه له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: قد ردّ إليك رسول الله ﷺ أهلك ومالك، فأسلم تسلم، قال: ما فعل الجليسان [٤]؟ وذكر رجال قومه، قال

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٦٨).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٣٦٨).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٥).
(٤) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٧٢).

ثابت: قد قتلوا وفرغ منهم، ولعل الله تبارك وتعالى أن يكون أبقاك لخير، قال الزبير: أسألك بالله يا ثابت وبيدي التي عندك يوم بعاث إلا ألحقتني بهم، فليس في العيش خير بعدهم، فذكر ذلك ثابت لرسول الله ﷺ فأمر بالزبير فقُتل [١].

٢ ـ شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سموأل القرظي:

كانت سلمى بنت قيس وكنيتها أم المنذر أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته رفاعة بن سموأل القرظي، وكان رجلاً قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي هب لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها، فاستحيته [٢].

وفي هذا الخبر دليل على أن الإسلام يكرم المرأة ويعتبر شفاعتها! هذه هي معاملة المرأة في هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها ويشجعها على فعل الخير [٣].

ثالث عشر: من أدب الخلاف:

في اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» [٤] فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال، فصلى العصر لما دخل وقته، وبعضهم أخذ بالظاهر فلم يصلّ إلا في بني قريظة، ولم يعنف النبي ﷺ أحداً منهم أو عاتبه، ففي ذلك دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذوراً ومثاباً، كما أن فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم [٥].

إن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهي في تشريعه، عدا أنه ضرب من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنياً محتملاً؟ ولو أمكن ذلك أن يتم في عصرنا لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ، ولكان أولى الناس بأن لا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت [٦]، وفي الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصه. وفيه أيضاً أن المختلفين في

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٠٢).
(٢) المصدر نفسه (١(٣٧٣).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ١١٦).
(٤) البخاري: كتاب المغازي (٥/ ٦٠)، رقم (٤١١٩).
(٥) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، (ص ٢٢٦).
(٦) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٢٢٦).

الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطىء فقد قال ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» (١).

وحاصل ما وقع أن بعض الصحابة خلوا النهي على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ـ وقت الصلاة ـ ترجيحاً لهذا النهي الخاص على النهي العام عن تأخيره الصلاة عن وقتها (٢).

وقد علق الحافظ ابن حجر على هذه القصة فقال: ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه، وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النص على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنهي الثاني على النهي الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة، وأنه كناية على الحث والاستعجال والإسراع إلى بني قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد، لأنه ﷺ لم يعنف أحداً من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم (٣).

رابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة وإسلام ريحانة بنت عمرو:

١ ـ جمع صحابة رسول الله ﷺ الغنائم التي خلفها بنو قريظة، فكانت كما يلي: من السيوف ألفاً وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفاً وخمسمائة ترس وجحفة، كما تركوا عدداً كبيراً من الشياه والإبل وأثاثاً كثيراً وآنية كثيرة، ووجد المسلمون دناناً من الخمر، فوزعت الغنائم وهي الأموال المنقولة كالسلاح والأثاث وغيرها بين المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة، فأعطى ﷺ أربعة أخماس الغنائم لهم، إذ جعل للفرس سهمين، وللراجل سهماً، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه، وغير الفارس يأخذ سهماً واحداً له، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقرر في كتابه تعالى (٤).

وأما ما وجده رسول الله ﷺ والمسلمون من الخمر عند بني قريظة فقد أراقوه، ولم يأخذوا منه شيئاً، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسهم رسول الله ﷺ لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى وأعطى سهمه لورثته (٥)، ولصحابي آخر مات أثناء حصار بني

(١) انظر: البخاري، كتاب الاعتصام، باب «أجر الحاكم إذا اجتهد» رقم (٧٣٥٢).
(٢) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).
(٣) اختصار من فتح الباري (٧/ ٤٧٣).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٦، ٩٧).
(٥) المصدر نفسه، (٢/ ٩٧).

قريظة [١]، كما رضخ رسول الله ﷺ للنساء اللواتي حضرن ولم يسهم لهن، منهن: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ [٢]، وأما الأموال غير المنقولة كالأراضي والديار فقد أعطاها رسول الله ﷺ للمهاجرين دون الأنصار، وأمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها [٣]، قال تعالى عن تلك الأراضي والديار: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

قال الأستاذ محمد دروزة: أما عبارة (وأرضاً لم تطأوها) فقد قال المفسرون: إنها أرض خيبر، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبني قريظة بعيدة عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار، ونتيجة للمصير الذي صار إليه أصحابها [٤]؛ هذا وقد أرسل رسول الله ﷺ سعد بن عبادة - رضي الله عنه - بالخمس من الذرية والنساء إلى الشام فباعها، واشترى بالثمن سلاحاً وخيلاً ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين، وكذلك بعث إلى نجد سعد بن زيد فباع سبياً واشترى سلاحاً [٥].

٢ - إسلام ريحانة رضي الله عنها:

وكان من بين السبي ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة، قد أراد الرسول ﷺ أن يتزوجها بعد أن تسلم، فترددت، وبقيت وقتاً على دينها، ثم شرح الله صدرها للإسلام فأسلمت، فبعثها إلى بيت أم منذر بنت قيس حتى حاضت ثم طهرت، فجاءها وخيّرها: أيعتقها ويتزوجها أو تكون في ملكه ﷺ؟ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها [٦].

خامس عشر: الإعلام الإسلامي في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصحابة بدورهم الجهادي، فقالوا قصائد رائعة وضّحوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب نقطتف منها أبياتاً منها كنماذج لهذه القصائد، فمن ذلك قول كعب بن مالك، أخو بني سلمة:

وسائلة تساءل ما لقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرينا

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٧٥).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٣٧٥).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٨).
(٤) انظر: سيرة الرسول لعزة دروزة (٢/ ٢٠٢).
(٥) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٩٨).
(٦) المصدر نفسه، (٢/ ٩٩).

صبرنا لا نرى للّه عدْلاً ... على ما نابنا مُتوكِّلينا
وكان لنا النبي وزير صدق ... به نعلو البريَّة أجمعينا
نقاتل معشراً ظلموا وعقُّوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا [١]
نعالجهم إذا نهضوا إلينا ... بضرب يُعْجِل المتسرعينا
ترانا في فضافِضَ سابغات ... كغُدران الملا متسربلينا [٢]

إلى أن قال:

لنَنْصُر أحمداً والله، حتى ... نكون عباد صدْق مُخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحزاب أتوا متحزّبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأنَّ الله مَوْلى المؤمنينا
فإمّا تقْتلوا سعداً سفاهاً ... فإن الله خير القادرينا
سيدخله جناناً طيِّبات ... تكون مقامة للصالحين
كما قد رَدَّكم فَلا شريداً ... بغيظكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثم خيراً ... وكدْتم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبّت عليكم ... فكنتم تحتها مُتكمِّهينا [٣]

(١) المرصد: المعد للأمر عدته.
(٢) متسربلينا: لابسون الدروع.
(٣) متكمّهينا: العُمي الذين لا يبصرون.

obeikandl.com